تولستوي و « الحرب والسلام »

بقلم سومرست موم

ترجمة سيد جاد

اعتقد (*) ان بلزاك هو اعظم روائي عرفه العالم على الاطلاق ،ولكني اعتقد ان رواية « الحرب والسلام » لتولستوي هي اعظم رواية .فلم يسبق ان كتبت (واغلب الظن ان هذا لن يتكرر) رواية تضارعها في الضخامة ، وتعالج مثل هذه الفترة الحاسمة من فترات التاريخ وتتناول هذه المجموعة الكبيرة من الشخصيات . ولقد قيل عنها بحق انها ملحمة . ولا استطيع ان اجد عملا روائيا اخر يمكن ان نصفه هكذا ونكون محقين في وصفنا .

وقد عبر ستراخوف : صديق تولستوي والناقد الكبير ، عن رايه في عبارات قليلة وقوية ، اذ قال : « انها صورة كاملة للحياة الانسانية صورة كاملة لروسيا في ذلك اليوم وصورة كاملة لما يمكن ان يسمى تاريخ الشعوب ونضالها . وصورة كاملة لكل شيء يجد فيه الناس سعادتهم ومجدهم ، حزنهم وهوانهم ، تلكم هي رواية « الحرب والسلام »

كان تولستوى في السادسة والثلاثين عندما شرع في كتابتها وهي سن تبلغ فيها موهبة الابداع عند الكاتب ذروتها بوجه عام . ولم ينته منها الا بعد ست سنوات . واختار لها حروب نابليون كفترة زمنية ،اما قمة الرواية فهى غزو نابليون لروسيا ، وحرق موسكو وانسحاب جيوشه وهلاكها . وعندما شرع تولستوي في كتابة روايته لم يكن يفكر الا في حكاية تدور عن حياة اسرة من الصفوة ، على ان يجعل من الاحداث التاريخية مجرد اطار لهذه الحكاية . وكان ينوي تعريض اشخاص القصة لعدد من التجارب التي ستؤثر فيهم تاثيرا روحيا عميقا ، ولكنهم في النهاية ، وبعد عذاب كبير ، يتطهرون وينعمون بحياة هادئة هانئة . ولم يركز تولستوى اهتماما متزايدا على الصراع الجبار بين القوى المتعارضة الا اثناء كتابته للرواية بالفعل ، واستطاع من خلال قراءاته الواسعة ، ان يستخلص لنفسه فلسفة للتاريخ ساعرض لها بايجاز فيما بعد .

ويقال ان في الرواية ما يقرب من خمسمائة شخصية . ولكل شخصية طابعها الذي يميزها بشدة عن غيرها من الشخصيات ، كما انها معروضة على القاريء بوضوح . وهذا في حد ذاته ، انتصار كبير . واهتمام الكاتب لا يتركز هنا على شخصيتين او ثلاث ، وانما على افراد اربع عائلات ، تنتمي الى الطبقة الارستوقراطية ، وهي عائلات رستوف بولكونسكي ، كوراجين ، وبيزوخوف . ومن بين العقبات التي تقتضي من الكاتب اجتيازها عندما يتطلب منه موضوعه معالجة اكثر من مجموعة من الشخصيات هي ان يجعل الانتقال من مجموعة الى اخرى مقبولا بحيث يتلقاه القاريء في يسر . فهو يكتشف ساعتها انه عرف ما كان في حاجة الى معرفته عن مجموعة من الاشخاص ، ولذلك فهو على استعداد لمعرفة ما جرى للاخرين الذين لم يسمع عنهم شيئا لفترة من الزمن ، ولقد بلغ من مهارة تولستوي في تحقيق هذا بوجه عام ما يجعلك تظن انك تتبع خيطا واحدا في الحكاية .

وكغيره من كتاب القصص بوجه عام استوحى تولستوي شخصياته من اشخاص عرفهم أو سمع بهم ، غير انه ، اعتبرهم ـ بالطبع ـ مجرد نماذج فقط ، وما ان اذابهم في خياله حتى صاروا مخلوقات من صنعه هو . ويقال انه استوحى شخصية الكونت المتلاف من جده ، وشخصية نيقولا روستوف من والده ، وشخصية الاميرة ماري ، الفاتنة المثيرة للشفقة ، من والدته . ويقال ، بوجه ، ان تولستوي في تصويره للرجلين اللذين قد نعتبرهما بطلي « الحرب والسلام » بيير بيزوخوف والامير اندرو ، انما كان يفكر في نفسه ، وقد لا يكون من قبيل الاغراق في الخيال ان نقول ان تولستوي ـ وقد ادرك انقسام شخصيته ـ سعى الى توضيح شخصيته وفهمها عن طريق خلق فردين متضادين ينبعان من انموذج واحد . والشيء الذي يتشابه في بيير والامير اندرو هما انهما ينشدان ، مثلما ينشد تولستوي نفسه ، الطمانينة الذهنية وكلاهما ينشدان حلا لالغاز الحياة والموت ، وكلاهما لا يعثران على هذا الحل غير انهما ـ فيما عدا ذلك ـ يختلفان فيما بينهما. فالامير اندرو شخص شهم رومانتيكي وهو فخور بنسبه ومركزه ، وهو نبيل في تفكيره . غير انه متكبر ، دكتاتور ، غير متسامح ، ومتهور وهو مع كل نقائصه شخصية جذابة الى حد بعيد . اما بيير فادنى من ذلك بكثير . انه عطوف ، حلو الشمائل ، متواضع ، مهذب ، مضحى بنفسه ، غير انه بلغ من الضعف والتردد والسذاجة وسرعة التعرض للخداع انه لا يسعك الا ان تضيق به ذرعا . ان رغبته في ان يفعل الخير وان يكون خيرا ، لشيء يمس شغاف القلب ، ولكن اكان من الضروري ان يكون احمق بهذه الصورة وعندما اصبح ماسونيا ، اثناء سعيه وراء حل للالغاز التي تعذبه تورط تولستوي في كتابة بضعة فصول مملة ، مملة جدا .

وكلا هذين الرجلين يحب ناتاشا ، صغرى بنات الكونت روستوف وقد استطاع تولستوي في تصويره لها ، ان يخلق امتع شخصية لفتاة في اي عمل روائي . وليس هناك ما هو اصعب من تصوير فتاة جذابة ومثيرة للاهتمام في الوقت نفسه . فالفتيات الصغيرات في القصص هن بوجه عام باهتات « اميليا في رواية « سوق الغرور » مستعرضات للفضيلة « فاني في رواية « صديقة مانسفيلد » ..ذكيات جدا في ضعف « كونستانتيا ديرهام في رواية « الاناني » ، او غبيات « دورا في رواية « كوبرفيلد » ، عابثات في غباء او ساذجات بصورة لا يصدقها العقل . وليس من الغريب ان تشكل هذه الفتيات مادة صعبة للروائي ، ذلك لان شخصياتهن ، في هذه السن الغضة ، غير ناضجة وذلك مثلما عجز الرسام عن ان يجعل الوجه مثيرا الا اذا كانت تقلبات الحياة ، والفكر والحب والعذاب قد اكسبت هذا الوجه شخصيته. وغاية ما يستطيع عمله وهو يرسم وجه فتاة هو ان يبرز سحر الشباب وجماله . ولكن ناتاشا طبيعية تماما . فهي حلوة ، حساسة ومتعاطفة عنيدة ، صبيانية ، مثالية بصورة انثوية ، سريعة الغضب ، دافئة القلب ، متصلبة الراي ، ذات نزوات ، وساحرة في كل شيء ، لقد ابدع تولستوي نساء كثيرات ، وهن طبيعيات بشكل رائع ، ولكنه لم يخلق سوى ناتاشا فتاة تستحوذ على لب القاريء .

وفي كتاب على هذه الضخامة ، كما هو شان « الحرب والسلام »كتاب استغرقت كتابته وقتا طويلا جدا ، لا مناص من ان يفتقد المؤلف حرارته في بعض الاحيان . وقد اشرت منذ قليل الى ان مغامرة بيير بالدخول

(*) هذا احد فصول كتاب سومرست موم « الروائيون الكبار وروايتهم Great Novelist and their Novels

وله اسم آخر هو « أعظم عشر روايات عالمية » .

في الماسونية مملة كما يبدو لي ان تلستوي فقد اهتمامه بشخصيته – الى حد ما – وهو يقترب من نهاية روايته . لقد صاغ فلسفة للتاريخ يمكن وضعها على النحو التالي : آمن تولستوي بان الناس يخطئون حين يظنون ان العظماء هم الذين يقودون على مجرى التاريخ ، وانما هناك قوة غامضة تشيع في الناس وقودهم – دون وعي منهم – الى النصر او الهزيمة . ولم يكن الاسكندر وقيصر ونابليون اكثر من قواد صوريين ، انهم رموز تسيرهم باندفاع لا يستطيعون مقاومته او التحكم فيه . ولم يكسب نابليون معاركه باستراتيجيته او بجيوشه الكبيرة ، اذ ان اوامره لم تكن تطاع ، اما لان الموقف كان يغير او لانها لا تصل في الوقت المناسب ، لقد كسبها لان العدو قد رسخ في اعتقاده انه خسر المعركة ، ومن ثم ترك ميدان القتال . ويرى تولستوى ان البطل في الغزو الذي تعرضت له روسيا هو كوتزوف القائد العام لانه لم يفعل شيئا ، وتجنب المعركة واكتفى بان انتظر حتى تقضي الجيوش الفرنسية على نفسها بنفسها . وقد يكون في هذا كما هو الحال في كل نظريات تولستوي ، قدر كبير من الصواب ممزوج بقدر كبير من الخطأ كما هو الحال مثلا في كتابه « ما هو الفن » What is Art ولكني لا املك من المعرفة ما يساعدني على معالجة هذا الموضوع . ويخيل الي انه خصص كل هذا القدر من الفصول لسرد وقائع الانسحاب من موسكو لتصوير هذه الفكرة . وقد نعتبر هذا تاريخا ممتازا ولكنه ليس فنا روائيا ممتازا .

واذا كانت قوى تولستوي قد وهنت في هذا الجزء الاخير من روايته الضخمة فقد استطاع تعويض ذلك بسخاء في الخاتمة .. انه ابتكار مدهش . لقد كان من عادة الروائيين السابقين ان يذكروا للقاريء ما حدث لشخصياتهم الرئيسية بعد ان تنتهي القصة الاصلية. فهم يخبرونه بان البطل والبطلة عاشا في « تبات ونبات وخلفا صبيانا وبنات» بينما هوى الشرير ، ان لم يكن قد اختفى قبل النهاية ، الى هوة الفقر وتزوج من امراة مشاكسة . وبهذا لقي جزاءه . لكن ذلك كان يحدث عرضا ، وفي صفحة او صفحتين ، ويترك القاريء وقد تولد لديه احساس بان المؤلف القى اليهفي شيء من الازدراء بما يسد حلقه . واستمر الحال على هذا المنوال الى ان جاء تولستوي ليجعل من خاتمة روايته شيئا له اهميته الحقة . لقد مرت سبع سنوات ،وها نحن نجد انفسنا في منزل نيقولا روستوف ، ابن الكونت العجوز وقد تزوج بامراة ثرية وانجب منها اطفالا ، ونجد بيير وناتاشا في زيارة طويلة لهما . لقد تزوجت ناتاشا وانجبت اطفالا هي الاخرى . لكن امالها الكبيرة وحماسها للحياة قد تحول الى تسليم جاف قانع . ان كلا منهما يحب الاخر ، ولكن اوه ، كم اصبحا غبيين عاديين ، بعد الاخطار التي مرا بها ، والالم والقلق اللذين عانياه انتهيا الى رضى شخصيين في اواسط العمر . واصبحت ناتاشا ربة بيت صاخبة ، وهي التي كانت في يوم من الايام حلوة ، متقلبة ، ممتعة . واصبح نيقولا روستوف الذي كان يوما نبيلا مرحا ، اصبح الان اقطاعيا يتمسك برايه وحده واصبح بيير اكثر بدانة عن ذي قبل ، وهو وان كان لا يزال مهذب الطبع الا انه لم يزدد حكمة . ان النهاية السعيدة في هذه الرواية محزنة للغاية . واعتقد ان تولستوي لم يكتبها بهذه الطريقة بدافع من احساس بالمرارة ، وانما لانه عرف ان كل شيء سينتهي هكذا ، وكان عليه ان يذكر الحقيقة .

✶

ولد تولستوي في طبقة قلما انجبت كتابا مرموقين . وهو ابن للكونت نيقولا تولستوي والاميرة الوارثة ماريا فولكونسكي. وقدولد في منز اجداد والدته ، بسنايا بوليانا . وكان رابع الابناء الخمسة . ومات ابواه ولما يزل طفلا . وتعلم باديء الامر على ايدي مدرسين خصوصيين ، ثم في جامعة قازان ثم في جامعة سان بطرسبرج . وكان تلميذا ضعيفا فلم يحصل على اي شهادة من الجامعتين . وساعده اصله الارستقراطي على دخول المجتمع وفي قازان ثم سان بطرسبرج وموسكو كان يقضي حلقات الرقص ويتردد على السهرات والحفلات وانخرط في سلك الجيش في القوقاز وفي حرب القرم .

وكان في ذلك الحين سكيرا ، مدمنا ، ومقامرا متهورا ، حتى انه اضطر ذات مرة ، كي يدفع ما خسره في القمار ، ان يبيع منزله في مقاطعة يسنايا بوليانا الذي كان جزءا من ميراثه . وكان رجلا ذا غرائز جنسية قوية ، واصيب اثناء وجوده بالقوقاز بمرض الزهري . ولقد جاء في يومياته انه بعد ان يقضي ليلة فسق،ليلة مع النساءاو الورق او في حفلة شراب مع الفجر – اذ كانت هذه هي الوسيلة الروسية المعتادة كما يبدو من رواياتهم ، وهي وسيلة ساذجة نسبيا لقتل الوقت – بعد هذه الليلة كان يعاني وخزات من الندم ، ومع ذلك لم يفته ابدا ان يكرر هذه العملية كلما سنحت الفرصة . ولقد بلغت به القوة انه يستطيع السير ليوم كامل ، او قضاء عشر ساعات او اثنتي عشرة ساعة لا يبارح سرجه ولا ينال منه التعب ، ومع ذلك كانضئيلا لا يلفت النظر . ولقد كتب يقول : « مرت بي لحظات اجتاحني فيها اليأس . تصورت انه لا يمكن ان ينعم بالسعادة على وجه الارض شخص له مثل هذا الانف المفلطح ، وهاتان الشفتان الغليظتان ، وهاتان العينان الرماديتان اللتان املكهما ، ولقد سالت الله أن يقوم بمعجزة ، فيجعلني وسيما . وكنت على استعداد لان اتخلى عن كل ما املكه وقتئذ وكل ما قد املكه في المستقبل مقابل وجه وسيم » . ولم يكن يعرف ان وجهه العادي يكشف عن قوة روحية ذات جاذبية رائعة . ولم يكن بمقدوره رؤية نظرات عينيه ، تلك النظرات التي كانت تضفي السحر على تعبيره، وكان يرتدي في تلك الفترة ملابس انيقة (املا ، مثلما كان يامل ستندال المسكين ، ان تعوضه الثياب العصرية عن قبح منظره) وتزايد اعتداده بمركزه بصورة غير لائقة . وقد كتب زميل له من زملاء الدراسة في قازان : « ظللت اتجنب مقابلة الكونت ، الذي يضايق المرء منذ اول مقابلة لتكلفه البرود ، ولشعره المشعث ، ونظراته النافذة التي تطل من عينيه نصف المغمضتين . ولم التق بحياتي بشاب لديه مثل هذا الاحساس – الغريب الذي يحيرني – بالاهمية والرضى عن النفس لم يكن يكلف نفسه تقريبا عناء الرد على تحيتي ، وكانما يود ان يفهمني باننا ابعد من ان نكون اندادا . » ويبدو انه عندما التحق بالجيش كان يحتقر الى حد ما اخوته الضباط . فقد كتب يقول : « صدمتني منذ البداية اشياء كثيرة في هذا المجتمع ، ولكني عودت نفسي على هذه الاشياء ، ولكن مع عدم الاندماج مع هؤلاء السادة . لقد عثرت على الوسطَ العدل الذي لا يجنح الى الكبرياء او الالفة » .

واثناء مقامه بالقوقاز ثم في سباستبول كتب عددا من المحاولات الادبية والقصص كما تحدث عن طفولته وشبابه المبكر بطريقة رومانسية ونشرت هذه الكتابات في احدى المجلات واثارت الاعجاب ، حتى انه استقبل بحرارة عندما عاد الى سان بطرسبرج بعد الحرب . لكنه لم يشعر بميل الى الناس الذين التقى بهم هناك ولم يشعروا – بدورهم باي ميل نحوه . وبالرغم من اعتقاده الجازم بانه شخص مخلص الا انه لم يستطع ابدا ان يقنع نفسه بان الاخرين مخلصون ايضا ، ولم يكن ليتردد في ان يصارحهم بذلك . وكان سريع الغضب ، وكان يعترض بوحشية على مشاعر الاخرين ولا يكترث بها بدافع من الكبرياء . وقد قال ترجنيف انه لم يقابل في حياته ابدا ما هو اكثر ارباكا من نظرة تولستوي المستطلعة التي تصاحبها بضع كلمات لاذعة تدفع بالمرء الى الجنون . ولم يكن يتقبل النقد بصدر رحب ، وقد تصادف وقرأ خطابا فيه تعريض بشخصه فارسل على الفور الى كاتب الخطاب يتحداه ان يبارزه ، ووجد اصدقاؤه صعوبة في منعه من الاشتراك في مبارزة تثير السخرية .

وفي ذلك الحين اجتاحت روسيا موجة من التحرر . وكان تحرير العبيد هو موضوع الساعة الملح ، وعاد تولستوي الى يسنايا بوليانا بعد ان قضى بضعة اشهر عابثا في العاصمة ، وعرض على الفلاحين في ضيعته خطة تهدف الى تحريرهم ، ولكنهم خشوا ان يكون في الامر مكيدة لهم فرفضوا . وافتتح مدرسة لتعليم اولادهم . واحدثت وسائله انقلابا . كان للتلاميذ الحق في عدم الذهاب الى المدرسة وحتى اذا

كانوا في المدرسة فان لهم الحق في ان لا ينصتوا الى مدرسهم . لم يكن هناك نظام على الاطلاق ولم يحدث ان عوقب طالب . وكان تولستوي يعلمهم ويمضي اليوم كله معهم ، وفي المساء يشترك في العابهم ويحكي لهم القصص ، وينشد معهم الاغاني حتى فترة متأخرة من الليل.

وفي هذه الفترة تقريبا كانت له علاقة مع زوجة احد عبيده ،وأسفرت هذه العلاقة عن ابن . ومرت السنون وعمل هذا الابن غير الشرعي ويدعى تيموشي ، سائقا لعربة احد ابناء تولستوي الصغار . ووجد مؤرخو السيرة ان من الطريف ان والد تولستوي كان بدوره ابنا لابن غير شرعي يعمل ايضا سائقا لعربة احد افراد العائلة . وانا ارى ان ذلك يدل على وجود شيء من البلادة الاخلاقية . فقد كنت اتوقع ان تولستوي بضميره الذي يعذبه ، وبرغبته الملحة في النهوض بالعبيد من حالهم المهين ، وتربيتهم وتعليمهم النظافة والذوق واحترام النفس سيقدم خدمة ـ على الاقل ـ لابنه . ولقد كان لترجنيف وليد غير شرعي ، كانت له طفلة ولكنه احاطها بعنايته واستحضر لها مربية لتعليمها وكان حريصا للغاية على اسعادها . الم يشعر تولستوي بادنى حرج وهو يرى ابنه الطبيعي ، يقود عربة ابنه الشرعي ؟.

ومن بين غرائب طبيعة تولستوي انه قد يبدأ في مشروع جديد بكل ما في العالم من حماس ، ولكنه بعد ذلك يضيق به تماما ان عاجلا او اجلا . كان ينقصه الى حد ما فضيلة المثابرة الايجابية . وهكذا فانه بعد ان ظل يدير مدرسته اوصد ابوابها بعدما وجد ان ثمرة نشاطه مخيبة للامال . وكان مرهقا غير راض عن نفسه ، معتل الصحة . وقد كتب فيما بعد انه كان على وشك اليأس في ذلك الحين لولا وجودجانب من حياته لم يستكشف بعد ، جانب يبشر بالخير . وكان هذا الجانب هو الزواج .

وقرر ان يخوض التجربة . وكان في الرابعة والثلاثين من عمره وتزوج بسونيا وهي فتاة في الثامنة عشرة ، وهي البنت الثانية لطبيب يدعى بيهرز ، كان طبيبا عصريا في موسكو كما كان صديقا قديما لعائلة تولستوي . واستقر الزوجان في ياسنايا بوليانا . وانجبت الكونتيسة خلال الاحدى عشرة سنة الاولى من زواجهما ثمانية اولاد ، كما انجبت خمسة اخرين خلال الخمس عشرة سنة التالية . وكان تولستوي يحب الخيل ويجيد ركوبها ، وكان جد شغوف بالصيد . وقد عمل على اصلاح ضيعته واشترى اراضي جديدة شرقي نهر الفولجا . حتى انه بات يمتلك ستة عشر الف فدان من الارض . وكانت حياته تجري على نمط مألوف . كان هناك في روسيا عشرات من النبلاء الذين يقامرون ويسكرون ويتصلون بفتيات في شبابهم ، والذين يتزوجون وينجبون قطيعا من الاطفال والذين يستقرون في مقاطعاتهم ، ويشرفون على املاكهم ، ، ويمتطون الجياد ويصيدون . كما كان هناك عدد غير قليل يشارك تولستوي مبادئه المتحررة ، ويألم لجهل الفلاحين ، وفقرهم المدقع ، والبشاعة التي يعيشون فيها ويسعون الى تحسين مصيرهم والشيء الوحيد الذي ميز تولستوي عنهم هو انه كتب في هذه الفترة روايتين من اعظم الروايات التي ظهرت في العالم هما «الحرب والسلام » و « انا كارنينا » . أما كيف حدث هذا ، فهو لغز يتعذر تفسيره مثلما يتعذر تفسير كيف الف ابن احد ملاك سسيكس الخاملين ووريثه قصيدة « اغنية للريح الغربية » .

ويبدو ان سونيا تولستوي كانت جذابة في شبابها . فقد كانت رشيقة القوام جميلة العينين ، اما انفها فمكتنز بعض الشيء ، وكان شعرها اسود لامعا . وكانت تفيض حيوية ومرحا ، وكان صوتها عذب الرنين . وظل تولستوي ، لفترة طويلة ، يحتفظ بمفكرة يسجل فيها ، لا اماله وافكاره ، وصلواته وتانيب نفسه فحسب وانما كانيسجل فيها ايضا خطاياه الجنسية وغير الجنسية . واثناء فترة الخطوبة ، ورغبة منه في الا يخفي شيئا عن زوجته المستقبلة اعطاها يومياته لتقرأها . وكان ان صدمت صدمة بالغة ، ولكنها بعد ان قضت ليلة مؤرقة ذرفت فيها الدمع اعادت اليه المفكرة وصفحت عنه. لقد صفحت عنه ، ولكنها لم تنس . وكان الاثنان عاطفيين بصورة حادة ، وكانا يتمتعان بما يعرف بزخارة الشخصية . ومعنى هذا بوجه عام ان الشخص من هذا الطراز له بعض الصفات غير الحميدة . وكانت الكونتيسة امرأة قاسية ، محبة للامتلاك وغيورة ، وكان تولستوي خشنا غير متسامح. وكان يصر على ان ترضع اطفالها بنفسها ، ولقد قبلت هذا عن طيب خاطر ، ولكن حدث عند ميلاد احد اطفالها ان نضب ثدياها مما اضطرها الى ان تعهد بالطفل الى مرضعة ، واذا بتولستوي يثور عليها دون وجه حق. وكانا يتشاجران من حين لاخر ثم يتصافيان. وكان كل منهما يحب الاخر حبا جما . وكان زواجهما سعيدا بوجه عام . واشتغل تولستوي بجد وراح يثابر في الكتابة . وكثيرا ما كان يصعب قراءة خطه ، لكن الكونتيسة التي كانت تقوم بنسخ اصول كتاباته كلما اعد جزءا منها صارت ماهرة جدا في فك رموزه ، بل لقد صارت قادرة على تخمين معنى ملاحظاته التي يدونها بسرعة وجمله غير المتكلمة . ويقال انها نسخت رواية الحرب والسلام سبع مرات.

وفيما يلي ما كتبه البروفسير سيمونز Simons في وصف يوم من ايام تولستوي : « التأم شمل العائلة امام مائدة الافطار ، واضفت نكات رب البيت ومزاحه على الحديث بهجة وحيوية . وفي النهاية ينهض مرددا : والان حان وقت العمل ، ويختفي في حجرة مكتبه حاملا معه في العادة كوبا من الشاي الثقيل . ولم يكن هناك من يجرؤ على ازعاجه . وعندما يغادر مكتبه بعد الظهر بقليل فانما ليتريض ، ومعنى ذلك عادة السير على الاقدام ، او ركوب الخيل. ويعود في الساعة الخامسة ويأكل بشراهة . وعندما يشبع جوعه يسلي كل الحاضرين بحديثه الحي عن أي تجربة صادفها خلال نزهته . وبعد الغداء يعود الى مكتبه ليقرأ وفي الثامنة ينضم الى العائلة وبمن قد يكون هناك من الزوار بحجرة الجلوس ليتناول الشاي وكثيرا ما تكون هناك موسيقى او قراءة بصوت عال او العاب للاطفال »(١) .

★

كانت حياة مليئة بالعمل، مجدية وهانئة ، ولم يكن هناك منسبب يحول دون ان تسير على هذا النهج الهنيء لعدة سنوات قادمة ، سونيا تنجب الاطفال وترعاهم وتشرف على المنزل ، وتساعد زوجها في عمله، وتولستوي يركب الخيل ويصيد ويشرف على ضياعه ويؤلف الكتب. وكان يقترب من عامه الخمسين . وهي فترة خطيرة للرجال . ذلك ان الشباب يكون قد ولى ، ويتطلع الشيوخ الى الوراء ويحتمل ان يتساءلوا : ما الذي حققوه في حياتهم ؟ ويتطلعون الى الامام، ويلوح لهم خريف العمر ، وساعتها قد يقشعرون من المستقبل . وقد كان هناك شبح يطارد تولستوي طوال حياته ـ ذلك هوالخوف منالموت. والموت مصير الناس كافة ، ومعظمهم لديهم من رجاحة العقل ما يمنعهم من التفكير فيه ، الا في لحظات الخطر او المرض الشديد . غير انه كان يرى في الموت مرضا لا يبرحه .. وفيما يلي ما جاء بكتابه المسمى « اعترافات » Confessions حيث يصف حالته الذهنية في ذلك الحين :

« منذ خمس سنوات بدأ ينتابني شيء غريب . في بداية الامر مرت بي لحظات من الحيرة والقلق ، وكأني لا أعرف كيف اعيش او ما الذي يمكن ان افعله ، وشعرت بالضياع واصبحت مكتئبا . غير ان هذه الغمة انكشفت ، وسارت الحياة بي سيرها الاول . لكن لحظات الحيرة اخذت تكثر من زيارتي وبنفس الصورة دائما . وكانت تتمثل لي دائما في هذه الاسئلة : ما جدوى هذه الحياة ؟ ما هي غايتها؟ وشعرت أن ما كنت اقف عليه قد انهار ، وانه لم يعد هناك ما أقف عليه . الاشياء التي كنت اقتات بها لم تعد موجودة ، ولم يعد امامي ما اقتات به . واصيبت حياتي بالقلق . كان في مقدوري ان اتنفس وآكل واشرب وانام ، ولم يكن امامي الا ان افعل ذلك ، ولكن لم تكن هناك حياة، اذ لم تكن هناكرغباتاستطيع اعتبار تحقيقها امرا معقولا».

(١) ليو تولستوي ـ تأليف أرنست ج. سيمونز .

« وقد لحقت بي كل هذه الكوارث في وقت كنت محاطا فيه بكل ما يمكن اعتباره حظا سعيدا للغاية ، فلم اكن قد بلغت الخمسين،وكانت لي زوجة صالحة تحبني واحبها ، وابناء نجباء ، وضيعة واسعة تنمو وتتقدم دون جهد كبير مني ... وكان الناس يمتدحونني وكان من الممكن ان ازعم ـ دون كثير من خداع النفس ـ اني اصبحت ذا اسم مشهور ... وكنت اتمتع بقوة في العقل والجسد ندر ان اجدهما عند انداني من الرجال ، فمن الناحية الجسمانية كان في مقدوري ان اجاري الفلاحين في سرعتهم في الحصاد ، ومن الناحية الذهنية كان في مقدوري ان استمر في العمل ثماني ساعات او عشر ساعات متصلة دون ان يكون لهذا الجهد عاقبة وخيمة » . « وتمثلت لي حالتي الذهنية بالطريقة التالية : ان حياتي ما هي الا نكتة غبية شريرة جعلني شخص ما هدفا لها » .

وعندما كان لا يزال صبيا كف عن الايمان بالله ، ولكن فقدانه للعقيدة جعله شقيا برما ، اذ لم تكن لديه النظرية التي تمكنه من فهم لغز الحياة . وكان يسأل نفسه « لماذا أعيش وكيف ينبغي لي ان اعيش ؟ » ولم يعثر على جواب . ثم انتهى مرة اخرى الى الايمان بالله ولكن بالتفكير المنطقي ، وذلك امر غريب حقا على رجل عاطفي المزاج ، وقد كتب يقول : « اذا كنت موجودا فلا بد ان هناك علة لوجودي ولا بد ان تكون هناك علة للعلل . وهذه العلة الاولى لجميع العلل هي ما يسميه الناس بالله » . وهذا البرهان من اقدم البراهين التي تثبت وجود الله . ولم يكن يؤمن باله خاص ، كما لم يكن يؤمن ، في ذلك الحين في الحياة بعد الموت ، وان كان فيما بعد ـ عندما انتهى الى ان النفس جزء من الابدية ـ بدا له ان من غير المعقول ان تفنى النفس بفناء الجسد . وظل فترة متعلقا بالكنيسة الروسية الاورثوذكسية ولكنه صدم اذ وجد ان حياة علمائها لا تتفق ومبادئهم ، ووجد ان من المستحيل ان يؤمن بكل ما يطالبونه بالايمان به . كان على استعداد لان يقبل فقط ما هو حق بمعناه البسيط الحرفي. وبدأ يلتصق بالمؤمنين بين اواسط الفقراء والبسطاء والاميين وكلما تأمل حياتهم زاد ايمانه بان هؤلاء الناس بالرغم من ظلمة خرافاتهم يتمتعون بايمان حقيقي يعتبر ضرورة لهم ، ولهم وحدهم ، ذلك لانه يعطي لحياتهم معنى ويجعل العيش ممكنا لهم .

ومضت سنوات قبل ان يصل الى تحديد نهائي لارائه ، وكانت سنوات تأمل ودراسة ومن الصعب تلخيص هذه الاراء تلخيصا مختصرا ووافيا في نفس الوقت وانا لا احاول ان افعل ذلك الا بعد تردد . بعد ان رفض تولستوي الطقوس الدينية لانها لا تقوم على اساس من تعاليم المسيح ولا تجدي الا في طمس الحقيقة ، وبعد ان رفض العقائد التي تتضمن مبادىء المسيحية باعتبارها هراء ظاهرا واهانة للذكاء البشري ، وانتهى الى الاعتقاد بأن الحقيقية لا تكمن الا في كلمات يسوع المسيح ، وآمن ان جوهر تعاليمه يرتكز في الامر التالي : « لا تقاوم الشر » وقرر ان الوصية « لا تقسم ابدا » لا تنطبق على القسم العادي فقط وانما على كافة أنواع القسم ايضا سواء القسم الذي يؤديه الشاهد او القسم الذي يؤديه الجنود . اما الامر « احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم » فيحرم على الرجال محاربة أعداء الوطن او الدفاع عن النفس حين التعرض للهجوم . وكان الاعتقاد برأي معناه في نظره العمل بمقتضاه فهو اذ انتهى الى ان جوهر المسيحية هو الحب ، والتواضع ، وانكار الذات ومقابلة الاساءة بالمعروف ، أحس بان لزاما عليه ان ينكر متع الحياة ، وان يعمل ويتواضع ويتعذب ويرحم .

واصرت سونيا تولستوي ، وهي من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الاتقياء على ان يتلقى اولادها تعليما دينيا ، وراحت بكل وسيلة تؤدي ذلك في تلك الرقعة التي شاءت العناية الالهية ان تضعها فيها . ولم تكن سونيا امرأة مغرقة في الروحانية ، انها لم تجد لذلك الوقت الكافي ، خاصة وقد انجبت مثل هذا العدد الكبير من الاطفال، وربتهم بنفسها واشرفت على تعليمهم التعليم السليم ، وادارت منزلا كبيرا . ولم تفهم نظرة تولستوي المتغيرة ولا تعاطفت معها ، ولكنها تقبلتها في تسامح كاف . ولكنها انزعجت مع ذلك عندما تغير سلوك تولستوي نتيجة لتبدل قلبه ، وتضايقت ولم تتردد في اظهار ضيقها. والان ، وقد رأى تولستوي ان من واجبه الا يستهلك جهد الاخرين الا في اضيق الحدود ، صار يوقد موقده بنفسه ، ويجلب الماء ويغسل ثيابه بنفسه . وجلب اسكافيا ليعلمه كيف يصنع الاحذية بعد ان تسلطت عليه فكرة كسب قوته بعرق جبينه . وكان يعمل مع الفلاحين في ياسنايا بوليانا يحرث معهم ويجر العربات حاملا الحصاد ويقطع الاخشاب ، ولم توافق الكونتيسة على ذلك فقد بدا لها انه يبذل من الصباح حتى المساء مجهودا جسمانيا لا نفع فيه ، مجهودا ، لا يقوم به الفلاحون انفسهم اللهم الا صغار السن منهم . وقد كتبت اليه تقول : « ستقول بالطبع ان العيش على هذا النهج يتفق ومعتقداتك، وانك تجد متعة في ذلك . تلك مسألة اخرى وليس امامي الا ان اقول: متع نفسك ، ومع ذلك يؤلمني ان تضيع هذه الطاقة الذهنية في شق الخشب ، واشعال السامووفار وصنع الاحذية ـ وجميعها اعمال ممتازة في ساعات الراحة او من اجل تغيير العمل ، ولكنها ليست كذلك اذا اتخذت كمهنة خاصة » ها هي تتكلم كلاما معقولا . كان من الحماقة ان يفترض تولستوي ان العمل اليدوي انبل في أي ناحية من العمل الذهني وحتى اذا كان يعتقد ان من الخطأ تأليف روايات يطالعها العاطلون ، الا اننا لا نكاد نصدق انه لم يعثر على عمل افضل من صناعة الاحذية التي لم يكن يجيد صنعها ، والتي لم يستطع الناس الذين منحهم اياها ان ينتعلوها . واعتاد على ارتداء ملابس الفلاحين ، واصبح قذرا وغير مهندم . وهناك قصة تحكى كيف دخل ذات يوم ليتناول طعام العشاء بعد ان قام بحمل السماد ، فقد بلغ من بشاعة الرائحة التي دخل بها انهم اضطروا الى فتح النوافذ. وهجر الصيد الذي كان مغرما به للغاية واصبح نباتيا حتى لا تذبح الحيوانات وتقدم على المائدة . لقد ظل لسنوات عديدة يشرب الخمر باعتدال كبير ، غير انه امتنع عنها نهائيا ، وفي النهاية وبعد نضال مرير مع نفسه كف عن التدخين .

وكان الاطفال في هذه الاثناء يشبون عن الطوق ، واصرت الكونتيسة على ان تنتقل الاسرة الى موسكو في الشتاء من اجل تعليم الاطفال ، ومن اجل ثانيا ابنتها الكبرى التي بدأت تنضج . وكان تولستوي يكره حياة المدن ، ولكنه استسلم تحت اصرار زوجته. وفي موسكو افزعه الفارق الذي لمسه بين غنى الاغنياء وفقر الفقراء. وكتب يقول ـ « لقد شعرت ولا زلت وسأظل اشعر بانه طالما كان لدي فائض من الطعام بينما لا يملك البعض شيئا منه ، واني امتلك معطفين وغيري لا يملك أي معطف ، فاني بذلك اشترك في جريمة تتكرر دوما». وكان من العبث ان يقول له الناس انه كان هناك اغنياء وفقراء دائما ، وان هذا سيحدث دائما ، فقد شعر ان ذلك امر غير سليم ، وبعد ان زار ملجأ لايواء المعوزين ليلا ولمس بشاعته ، شعر بالخزي اذ يذهب الى منزله ويتناول عشاء من خمسة اصناف ، يقدمه خادمان بملابسهما الرسمية ورباط العنق والقفاز الابيض . وحاول ان يمنح المال للمعوزين الذين يلتمسون عنده المعونة ، ولكنه انتهى الى ان المال الذي يأخذونه يتملقهم له يضر اكثر مما ينفع . وقال ـ « ان المال اثم . ولذا فان من يعطي مالا يرتكب اثما » . ولم يمض وقت طويل الا وقد أصبح يجزم بان الامتلاك امر مناف للاخلاق وان ـ من الخطأ استمتاع المرء بممتلكات . وبالنسبة لرجل كتولستوي ، كانت الخطوة التالية واضحة. لقد قرر ان يتخلص من كل ما يمتلكه ، ولكنه اشتبك هنا في صراع عنيف مع زوجته ، التي لم تكن ترغب في ان تصبح شحاذه او تترك اولادها معدمين . وهددته باللجوء الى المحاكم لاعلان عجزه عن ادارة شؤونه ، وبعد جدال لا يعرف الا الله مدى عنفه وافق على ان تؤول ممتلكاته اليها . وقد رفضت هذا العرض ، وفي النهاية قسم الممتلكات

بينها وبين الاولاد . وفي اكثر من مناسبة ـ خلال الاعوام التي استغرقها الخلاف ـ غادر البيت ليعيش وسط الفلاحين ، ولكنه قبل ان يمضي بعيدا كان يجد نفسه مشدودا ثانية الى البيت بسبب الالم الذي يعرف انه يسببه لزوجته . واستمر يعيش في ياسنايا بوليانا،وبالرغم من تأله لمظاهر الترف الذي يحيط به ـ وهو ترف متواضع للغاية ـ الا انه جنى منه ثروة . واستمرت الاحتكاكات . ولم يوافق على التعليم التقليدي الذي كانت الكونتيسة توفره لاولادهما . ولم يستطع ان يغفر لها وقوفها ضده لمنعه من التصرف في ثروته كما يريد.

وعاش تولستوي بعد هذا التحول ثلاثين سنة . ولا يسمح لي المجال هنا بأن اتناول هذه الفترة الطويلة بالتفصيل . وانا مضطر الى حذف الكثير مما له اهمية في حد ذاته . لقد اصبح تولستوي شخصية كبرى ، فالناس لم تعرفه على انه اعظم كاتب في روسيا فحسب ، وانما عظمت شهرته في انحاء العالم كروائي ، ومعلم، واخلاقي . وانشئت المستعمرات التي اراد اصحابها ان يعيشوا وفقا لمبادئه . واحسوا بالاسى عندما حاولوا تطبيق مبدأه الخاص بعدم المقاومة ، وقصة مغامراتهم الفاشلة مفيدة ومضحكة معا . ونتيجة لطبيعة تولستوي المتشككة ، وجداله العنيف ، وعدم تسامحه، واعتقاده العلني بأن من يختلف معه فانما يدافع من بواعث دنيئة ، كان اصدقاؤه يعدون على اصابع اليد ، ولكن عندما تضاعفت شهرته، وفد على ياسنايا بوليانا جمع من الطلاب ، والحجاج الذين يزورون بقاع روسيا المقدسة ، والسياح والمعجبون والاتباع فقيرهم وغنيهم ، النبيل منهم والعادي .

وكانت سونيا تولستوي ، كما ذكرت ، غيورة محبة للامتلاك ، كانت تريد دائما احتكار زوجها ، وقد قاومت غزو الغرباء لمنزلها. وكان امتحانا عسيرا لصبرها . وكتبت تقول ـ « بينما يتحدث هو للناس عن كل مشاعره العذبة ، ويفرق في التحمس لنفسه يظل يعيش كما كان يعيش ، مغرما بالطعام وبركوب دراجة ، وبالخيل ، وباشباع شهوته » . وفي مناسبة اخرى كتبت في يومياتها تقول « لا اتمالك الا ان اشكو لان كل هذه الاشياء التي يمارسها من اجل اسعاد الناس تعقد الحياة بصورة يصعب علي معها ان اعيش . فكونه نباتيا معناه اضطرارنا الى طهي طعامين للغداء مما يسبب زيادة في النفقات ومزيدا من الجهد البشري ، ومواعظه عن الحب والخير ادت الى عدم اكتراثه بعائلته وتطفل كل انواع الرعاع على محيطنا » .

وكان من اوائل الذين شاركوا تولستوي اراءه شاب يدعى شيرتكوف ، وهو ثري ، وكان يعمل ضابطا بالحرس ، لكنه استقال من منصبه عندما اقتنع بمبدأ عدم المقاومة . وكان رجلا مخلصا مثاليا ومتحمسا ، ولكنه كان يميل الى السيطرة ، وكانت لديه قدرة فريدة على فرض ارادته على الاخرين ، ويذكر ايلمر مود Aylmer Maud عنه ان كل من اتصل به صار له أداة أو تشاجر معه او اضطر الى الفرار منه . وانبثقت علاقة وثيقة بينه وبين تولستوي ، واستمرت حتى وفاة الاخير ، وكان له نفوذه على تولستوي مما اثار حفيظة الكونتيسة.

وبينما بدت اراء تولستوي متطرفة في نظر اصدقائه كان شيرتكوف يحثه دائما على المضي الى ابعد من ذلك ، وعلى تطبيقها بمزيد من الصرامة . ولقد بلغ من انشغال تولستوي بتطوره الروحي انه اهمل مقاطعاته ، وكانت النتيجة انه بينما كان من الممكن ان تدر حوالي ثلاثمائة الف دولار كل عام ، لم تات بأكثر من ٢٥٠٠ دولار . وكان من الواضح ان ذلك لا يكفي للانفاق على البيت وتعليم هذا الحشد من الاطفال . واغرت الكونتيسة زوجها ان يمنحها حقوق نشر كافة مؤلفاته التي كتبها قبل سنة ١٨٨١ واقترضت بعض المال وبدأت مشروعا لحسابها لنشر كتبه . واثمر المشروع جدا لدرجة انها استطاعت ان تغطي ديونها . وكان من الواضح ان الاحتفاظ بحقوق انتاج تولستوي الادبي لا يتفق وعقيدته بأن الملكية اجراء لا اخلاقي ، فلما نجح شيرتكوف في السيطرة على تولستوي حثه على ان يعلن بان كل ماكتبه منذ عام ١٨٨١ هو ملك شائع للجمهور يستطيع من يشاء ان ينشره.

وكان هذا كافيا ليثير غضب الكونتيسة ، لكن تولستوي ذهب الى ما هو ابعد من هذا ، لقد حثها على ان تتنازل عن حقوقها في كتبه الاولى ، وكان من بينها بالطبع الروايات الرائجة جدا ، وهذا ما رفضته الكونتيسة رفضا باتا . كانت حياتها وحياة اسرتها تتوقف على هذه الحقوق . واعقب ذلك خلافات حادة طويلة . ولم تدعه سونيا وشيرتكوف ينعم بالسلام. كان موزع النفس بين مطالب متضاربة لا يستطيع دحض أي مطلب منها .

في عام ١٨٩٦ كان تولستوي قد بلغ الثامنة والستين من عمره. وكان قد مضى على زواجه اربعة وثلاثون عاما . وكبر معظم اولاده، وكانت ابنته الثانية في طريقها الى الزواج ، اما زوجته التي كانت قد بلغت الثانية والخمسين فقد تورطت في امر شائن وهو وقوعها في حب رجل يصغرها بسنوات عدة ، وهو مؤلف موسيقي يدعى « تانايف » ، وصدم تولستوي وشعر بالخجل والسخط . والى القارىء هذا الخطاب الذي كتبه لها ـ « ان صلتك الوثيقة بتانايف تشعرني بتقزز ، وانا لا استطيع ان اصبر عليها في هدوء . ولو مضيت اعيش معك على هذا النحو فلن افلح الا في تقصير حياتي وتسميمها . لقد مضى علي عام وانا لا اعيش على الاطلاق . وانت تعرفين هذا. لقد ذكرت لك هذا وانا في اشد حالات الضيق ، وكنت استعطفك. وفي الاونة الاخيرة جربت الصمت . لقد جربت كل طريقة ولا من جدوى . ان العلاقة الوثيقة مستمرة واستطيع ان اقول انها قد تسير على هذا النحو حتى النهاية . وانا لم اعد اطيق هذا . وواضح انك لا تستطيعين فصم عراها ، لم يبق غير شيء واحد ـ ان ننفصل. ولقد حزمت امري على ذلك . ولكن ينبغي ان ابحث عن افضل طريق لانجاز هذا الامر . واعتقد ان افضل شيء بالنسبة لي هو السفر الى الخارج. سوف نفكر في افضل الطرق . شيء واحد مؤكد ـ وهو اننا لا نستطيع المضي على هذا النحو » .

ولكنهما لم ينفصلا ، وانما ظل كل واحد منهما يحيل حياة الاخر الى شيء لا يطاق . وطاردت الكونتيسة المؤلف الموسيقي الشاب بجنون امرأة مسنة عاشقة ، وربما أطربه ذلك في بداية الامر ، ولكنه سرعان ما ضاق بعاطفة لا يستطيع مبادلتها ، عاطفة تجعله موضع سخرية . واكتشفت في النهاية انه يهرب منها ، وانه يعمل على تجنبها . وفي النهاية تهجم عليها علنا مما احزنها للغاية . وبعد مضي فترة قصيرة انتهى تفكيرها الى ان تانايف كان « بليدا خشنا في الجسم والروح » وانتهى عهد العلاقة المشينة.

وكان الخلاف بين الزوج والزوجة قد اصبح في ذلك الحين امرا شائعا ، وكان مما يحز في نفس سونيا ان يقف تلاميذه، وقد اصبحوا الان اصدقاءه الوحيدين ، في صفه ، وان يقفوا منها موقفا عدائيا لانها منعته من العمل كما كان ينبغي له في نظرهم . ولم يجلب له تحوله سعادة تذكر ، لقد افقده اصدقاءه ، وبث الفرقة بين افراد عائلته ، واحدث انشقاقا بينه وبين زوجته. ولامه اتباعه على استمراره في حياته الرخية . والحق انه كان يشعر بانه جدير باللوم . وكتب في يومياته « والان ، وانا اخطو اليوم الى عامي السبعين ، أحن بكل ما في روحي من عنفوان ـ الى الهدوء والوحدة ، وبالرغم من اني لا انشد التناغم الكامل الا اني لا أنشد شيئا أفضل من ذلك التناقض الصارخ بين حياتي ومعتقداتي وضميري ».

وانهارت صحته . واصيب خلال العشر السنوات التالية بأمراض مختلفة ، وقد بلغ من شدة احدها ان شارف تولستوي على الموت. وقد وصفه غوركي ، الذي عرفه في هذه الفترة ، بأنه نحيف جدا وضئيل ورمادي اللون ، غير ان عيناه صارتا اشد حدة ، ونظراته اكثر نفاذا . وملأت التجاعيد العميقة وجهه . وكانت له لحية طويلة بيضاء مشعثة الشعر . اصبح تولستوي عجوزا. وكان قد بلغ الثمانين من عمره. وانقضى عام اعقبه اخر ، وبلغ الثانية والثمانين . وكان ينهار بسرعة،

ـ التتمة على الصفحة ١٢٦ ـ

تولستوي و « الحرب والسلام »

تتمة المنشور على الصفحة ـ ٧٩ ـ

وبات من الواضح انه لم يعد امامه سوى اشهر قلائل يعيشها. وكانت اشهرا مريرة بسبب المشاجرات الحادة . وكان شيرتكوف الذي لم يشارك تولستوي ، فيما يبدو فكرته عن لا اخلاقية الملكية ، قد اشترى ضيعة بالقرب من ياسنايا بوليانا، مما يسر بالطبع مهمة اللقاء بين الرجلين . وبدأ يلح على تولستوي ان ينفذ رغبته في ان يصير كل انتاجه بعد مماته ملكية عامة . واهاج الكونتيسة ان تحرم من حقها في الروايات التي سبق ان تنازل لها عنها تولستوي منذ خمسة وعشرين عاما . وتحولت العداوة الطويلة بينها وبين شيرتكوف الى حرب علنية . ووقف الابناء الى جانب امهم ، باستثناء الكسندرا ابنة تولستوي الصغرى التي كانت واقعة تماما تحت تاثير شيرتكوف، ولم يرد الابناء ان يعيشوا تلك الحياة التي ارادها لهم والدهم ، وبالرغم من انه قسم ضياعه بينهم ، الا انه لم ير ما يدعو الى حرمانهم من المبالغ الضخمة التي درتها كتاباته . وبالرغم من الضغط الذي تعرض له تولستوي من جانب اسرته ، الا انه كتب وصية تنازل فيها عن كل اعماله للجمهور ، واعلن ان المخطوطات التي تكون موجودة وقت وفاته تسلم الى شيرتكوف حتى يجعلها في متناول كل من يرد نشرها. ولكن كان من الواضح ان هذا الاجراء غير قانوني ، والح شيرتكوف على تولستوي ان يكتب وصية اخرى . وتم تهريب الشهود الى داخل المنزل حتى لا تعرف الكونتيسة ماذا يجري هناك ، ونسخ تولستوي الوثيقة بخط يده خلف الابواب المغلقة بحجرة مكتبه . وتضمنت هذه الوصية تسليم حقوق الطبع لابنته الكسندرا التي اقترح شيرتكوف تعيينها ، ذلك لانه كتب بأسلوب فيه الكثير من التجاوز « صرت موقنا بأن زوجة تولستوي واولاده لا يودون ان يروا وريثا من خارج الاسرة» لقد حرمتهم الوصية من الوسيلة الرئيسية للعيش . ومع ذلك، لم يقنع شيرتكوف بذلك ، وحرر بنفسه وصية اخرى نسخها تولستوي وهو جالس على جذع شجرة في الغابة ، بالقرب من منزل شيرتكوف. وهكذا اصبح شيرتكوف يسيطر على المخطوطات سيطرة تامة . واهم هذه المخطوطات يوميات تولستوي الاخيرة . لقد جرى الزوجان على عادة تسجيل اليوميات منذ زمن طويل ، واتفقا على ان يطلع كل منهما على ما كتبه الاخر وقتما يشاء . كان ترتيبا مشؤوما . فقراءة احدهما لشكوى الاخر كانت تجعلهما يتبادلان الاتهامات المريرة . وكانت اليوميات التي كتبت في عهد مبكر في حوزة سونيا، اما اليوميات التي كتبت في السنوات العشر الاخيرة فقد سلمها تولستوي لشيرتكوف. وعقدت سونيا العزم على استرجاع هذه اليوميات ، لان من الممكن نشرها في النهاية بما يعود عليه بالربح ، ولكن السبب الاهم هو ان تولستوي كان جد صريح في سرده لتفاصيل الخلافات بينهما. ولم تكن تود ان يطلع الناس على هذه الفقرات . وارسلت رسولا الى شيرتكوف لاسترجاعها ، ورفض شيرتكوف . وكان أن هددت بأن تسم نفسها او تنتحر غرقا اذا لم ترد اليها هذه اليوميات ، واهتز تولستوي للضجة التي اثارتها فسحب اليوميات ، ولكنه بدلا من ان يسلمها اليها اجتفظ بها في البنك . وكتب اليه شيرتكوف خطابا علق عليه تولستوي في يومياته « وصلني خطاب من شيرتكوف مملوء باللوم والاتهامات، مما جعلني أتمزق اربا اربا . ويخطر لي في بعض الاحيان ان افر بنفسي بعيد عنهم جميعا ».

ومنذ صباه تقريبا كانت تجتاحه الرغبة في نبذ العالم بما فيه من ضجة ومتاعب ، والركون الى مكان يستطيع فيه ان يكرس حياته في العمل على الوصول بنفسه الى مرتبة الكمال ، في جو من العزلة. وكغيره من الكثيرين من الكتاب بث هذه الرغبة في شخصيتين من شخصيات رواياته وهما ـ بيير في « الحرب والسلام » وليفين في «انا كارنينا » حيث صب فيها الكثير من نفسه . وتضافرت ظروف حياته في تلك الفترة لتجعل من هذه الرغبة الحاحا يستبد به تقريبا . فزوجته ، واولاده ، يعذبونه . وكان قد ضاق بعدم رضا اصدقائه عنه ، اذ شعروا بأنه من واجبه في النهاية ان يضع مبادئه موضع التنفيذ الكامل . فقد تألم الكثيرون منهم لانه لم يعمل بما يعظ به . وكان يتلقى في كل يوم رسائل جارحة تتهمه بالنفاق . وكتب اليه احد تلامذته المتحمسين يتوسل اليه ان يتخلى عن ضيعته ، وان يمنح ممتلكاته لذوي القربى والفقراء ، والا يترك لنفسه كوبيكا واحدا، وان يهيم على وجهه من مدينة الى اخرى كما لو كان شحاذا . ورد عليه تولستوي بقوله ـ « تأثرت لخطابك اشد التأثر ، ان ما تنصحني به هو حلمي المقدس ، ولكني عجزت حتى الان عن تحقيقه . وهناك اسباب عدة ... ولكن السبب الرئيسي هو انه لاينبغي ان يكون في اقدامي على ذلك ضرر الاخرين . » على ان المرء في اغلب الاحيان يخفي السبب الحقيقي لمسلكه ، ويلقي به الى وعيه الباطن ، ومن هنا اعتقد ان السبب الذي منع تولستوي من العمل بما املاه عليه ضميره واصدقاؤه هو ـ بكل بساطة ـ انه ليست لديه الرغبة الكافية التي تدفعه الى تنفيذ ما يريده . وهنا سمة نفسية في الكاتب لم ار احدا يشير اليها ابدا ، بالرغم من وجوب وضوحها في ذهن كل من يتصدى لدراسة حياة الكتاب . ذلك ان كل عمل ابداعي ينتجه الكاتب هو ـ الى حد ما على الاقل ـ اعلاء لغرائزه ، ورغباته ، واحلام يقظته ، سمها ما شئت ، اشياء يكون قد كبتها في نفسه لسبب او لاخر ، وهو اذ يعبر عنها تعبيرا ادبيا فانما يحرر نفسه من الرغبة في التنفيس عنها بصورة اكبر عن طريق الفعل الايجابي . على ان المؤلف لا يجد الرضى التام في ذلك . اذ يبقى لديه الشعور بالعجز. وهذا هو السبب في ان الاديب يمجد الرجل الايجابي ، وينظر اليه ـ على كره منه ـ نظرة اعجاب ممزوج بالحسد . ومن الجائز جدا ان تولستوي باشر العمل اليدوي كبديل لدوافعه المكبوتة . ومن المحتمل انه كان سيجد في نفسه القوة التي تدفعه الى تنفيذ ما يؤمن به في اخلاص لولا انه الف تلك الكتب فخفف بذلك من حدة تصميمه.

*

ولد تولستوي بالطبع ليكون كاتبا ، ولقد كانت غريزته تدفعه الى تصوير الامور بأكثر الطرق فعالية ، وتأثيرا وتشويقا . واعتقد ان تولستوي في كتاباته التعليمية قد جعل قلمه يتمادى معه لكي يجعل نقاطه اكثر تأثيرا ، وهنا وضع نظرياته بطريقة اكثر اجحافا مما لو توقف ليتأمل النتائج التي ستنتج عن موقفه هذا . والواقع انه اعترف في احدى المناسبات بأن التساهل ، وان استحال من الناحية النظرية، الا انه امر لا مفر منه عند التنفيذ فمعنى ذلك انه غير عملي ، اذن فلا بد ان النظرية تعاني من شوائب . ولكن من سوء حظ تولستوي ان اصدقاءه واتباعه الذين كانوا يفدون في جماعات على ياسيانا بوليانا ، يدفعهم الشوق الى تولستوي ، لم يستطيعوا ان يهضموا رضوخ معبودهم لفكرة التساهل . والواقع انهم كانوا متوحشين بعض الشيء في اصرارهم الدائب على ان يضحي الرجل العجوز بنفسه من اجل فكرتهم الدرامية عن الصواب . كان تولستوي سجين رسالته . فان كتاباته ، والتأثير الذي خلفته في الكثيرين ، وهو تأثير خطير بالنسبة للغالبية ، والتأليه ، والاحترام ، والمحبة التي غمرته ، كل هذا دفعه الى موقف لم يكن منه غير مخرج واحد ، غير انه عجز عن الاقدام عليه.

فتولستوي ـ عندما غادر المنزل في النهاية في رحلته المفجعة والشهيرة معا والتي انتهت بموته ـ لم يفعل هذا لانه قرر في النهاية ان يخطو الخطوة التي حثه على اتخاذها ضميره، وتصورات اصدقائه، وانما فعل ذلك فرارا من زوجته . وكان السبب المباشر في فراره عرضيا . لقد ذهب الى فراشه وبعد لحظات سمع صوت سونيا تفتش بين الاوراق في حجرة مكتبه . وكانت فكرة السرية التي حرص عليها في كتابة الوصية تطارد ذهنه ، وربما ظن حينئذ ان زوجته قد

سمعت بطريقة ما بوجود هذه الوصية ، ثقامت تفتش عنها . وعندما انصرفت نهض من فراشه واخذ بعض المخطوطات ، وحزم بعض الملابس ، وبعد أن ايقظ الطبيب الذي كان يقيم بالمنزل منذ فترة، اخبره انه سيغادر المنزل . وتم ايقاظ الكسندرا ، كما تم انتزاع السائق من فراشه ، واسرجت الجياد ، واستقل العربة بصحبة الطبيب ، واتجها نحو المحطة . كانت الساعة تشير الى الخامسة صباحا . وكان القطار مزدحما بركابه مما اضطره الى الوقوف في مؤخرة العربة في العراء معرضا للبرد والمطر . ونزل في البداية في شمردين حيث تعيش اخت له راهبة في الدير ، وهناك لحقت به الكسندرا . وحملت اليه نبأ محاولة الكونتيسة الانتحار عندما اكتشفت ذهاب تولستوي. وكانت الكونتيسة قد اقدمت على ذلك من قبل اكثر من مرة . ولما كانت لا تكلف خاطرها عناء الاحتفاظ بما تنتويه في نفسها فان محاولاتها لم تكن تنتهي بمأساة وانما تنتهي بضجة وانزعاج فقط. وحثته الكسندرا على المضي في طريقه خشية ان تكتشف امها مكانه فتتبعه . وتوجهوا الى رستوف اون دون . وكان قد اصيب بالبرد، وساءت حالته للغاية ، وفي القطار بلغ من اشتداد المرض عليه انقرر الطبيب النزول في المحطة التالية. وكان ذلك في مكان يسمى استابوفو. وعندما عرف ناظر المحطة شخصية الرجل المريض وضع منزله تحت تصرفه . وابرق تولستوي في اليوم التالي الى شيرتكوف كما ابرقت الكسندرا الى اخيها الاكبر طالبة منه استدعاء طبيب من موسكو. ولكن شخصية تولستوي كانت اشهر من ان تظل تحركاتها مجهولة من الناس ، وخلال اربع وعشرين ساعة عرفت الكونتيسة مكانه من احد الصحفيين. واسرعت الى استابوفو مصطحبة من كان في ياسنايا بوليانا من اولادها . لكن حالته المرضية كانت من السوء بحيث رؤي ان من الافضل عدم اخباره بوصولها ، ولم يسمح لها احد بدخول المنزل . وشغل العالم كله باخبار مرضه . وفي خلال الاسبوع الذي استغرقه مرضه احتشدت محطة استابوفو بممثلي الحكومة وضباط البوليس وموظفي السكة الحديد ورجال الصحافة والمصورين وكثيرين غيرهم . وكانوا يقيمون في عربات السكة الحديدية التي وضعت لهم في خط جانبي لاستضافتهم ، ولم يستطع مكتب التلغراف المحلي ان يلاحق العمل الذي القي على عاتقه الا بمشقة بالغة . وكان تولستوي يعاني سكرات الموت وسط وهج الشهرة . ووصل مزيد من الاطباء حتى بلغ عددهم في نهاية الامر خمسة . وكثيرا ما كانت تجتاحه نوبات هذيان ، ولكنه كان في لحظات وعيه قلقا على سونيا التي كان لا يزال يعتقد انها بالمنزل لا تعرف مكانه . كان يعرف انه سيموت. ولقد خشي الموت طوال حياته ، لكنه لم يعد يخشاه الان . وقال – هذه هي النهاية . وهذا لا يهم . واشتدت حالته سوءا . وفي نوبات هذيانه استمر يصيح « ان اهرب ! أن اهرب ! » وسمح لسونيا في النهاية بدخول الحجرة . وكان فاقد الوعي وركعت على ركبتيها وقبلت يده ، وتنهد ، لكن لم تصدر منه اية بادرة تدل على انه ادرك مجيئها. وفي الساعة السادسة وبضع دقائق من صباح يوم الاحد ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ مات .

*

ولقد استعنت كثيرا في كتابتي لهذا المقال بكتاب « حياة تولستوي Life of Tolostoy تاليف ايلمر مود . كما استعنت بترجمته لـ « الاعترافات Confessions ويمتاز مود بانه كان يعرف تولستوي وعائلته ، وان سرده مما تشوق قراءته . وان كان من سوء الحظ انه اعتقد ان من المناسب ان يذكر عن نفسه وعن ارائه اكثر مما يريد معظم القراء ان يعرفوه . كما اني مدين جدا للسيرة الكاملة المفصلة المقنعة التي كتبها البروفيسير سيمونز عن حياة تولستوي. فقد ذكر كثيرا من الحقائق المثيرة التي رأى ايلمر مود ان من الحكمة حذفها . ولا شك انها ستظل السيرة المعتمدة في اللغة الانجليزية لفترة طويلة.

ترجمة : سيد جاد

صدر حديثا عن

دار العلم للملايين

* * *

	ل.ل.
١ – النكبة والبناء « جزءان » للدكتور وليد قمحاوي	١١٫٠٠
٢ – الاسلام والعرب ، تاليف المستشرق روم لاندو : تعريب الاستاذ منير البعلبكي	٦٫٠٠
٣ – عبقرية ابي تمام « طبعة ثانية » للاستاذ عبد العزيز سيد الاهل	٢٫٠٠
٤ – المعبد الغريق «شعر» للاستاذ بدر شاكر السياب	٢٫٠٠
٥ – الشلال « شعر» الاستاذ احمد الصافي النجفي	٤٫٠٠
٦ – اوليفر تويست للقاص العظيم تشارلز ديكنز ، تعريب الاستاذ منير البعلبكي	٥٫٠٠
٧ – نحن والتاريخ « طبعة ثانية » للدكتور قسطنطين زريق	٤٫٠٠
٨ – فن المتنبي بعد الف عام للاستاذ ابراهيم العريض	٤٫٠٠
٩ – احاديث في التربية والاجتماع للعلامة ساطع الحصري	٥٫٠٠
١٠ – الحقيقة ولدت في المنفى لفيلا هوريا تعريب الاستاذ ابراهيم الحاو	٤٫٠٠
١١ – الاتجاهات الادبية «طبعة ثالثة» للاستاذ انيس المقدسي	٨٫٠٠
١٢ – حياة محمد ورسالته ، تاليف مولانا محمدعلي، وتعريب الاستاذ منير البعلبكي	٤٫٠٠
١٣ – الجيل الخائب ، لانطوان كار ، تعريب الاستاذ احمد حازم يحيى	٤٫٠٠